

تأكيد المدح والذم بما يشبه ضدّهما
في القرآن الكريم
(دراسة تحليلية بلاغية)

إعداد:

د. حسن عليّ حماد العبيدي.

تدريسي في قسم اللغة العربية في كلية الآداب / جامعة
الأنبار

ملخص البحث

تناولت هذا الدراسة الأسلوب البديعي تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتأکید الذم بما يشبه المدح في القرآن الكريم ، غايتها أن تبرز وظيفته الدلالية في الصياغة القرآنية ، وقد نظرت إليه من جانبين : نظري وتطبيقي، ففي الجانب النظري يقدم عرضاً مختصراً لمفهوم تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه عند البلاغين. أما الجانب التطبيقي، فدرس نموذجين من هذا الملحظ البديعي ، هما: تأكيد المدح بما يشبه الذم وتأکید الذم بما يشبه المدح ، وعرض أمثلة لكليهما . وخلصت الدراسة إلى أن هذا الأسلوب البديعي يكتسب أهمية في دراسته في النظم القرآني ، لان لهذا الأسلوب البديعي اثر فاعل في إضفاء المعنى البلاغي والجمالي على الخطاب القرآني.

Abstract

الكلمات المفتاحية : تأكيد ، مدح ، ذم

This study delas with rhetorical technique praise emphasis which is like the dispraise and the dispraise emphasis which is like the praise in the holy Quran . the researcher dealt with it from two aspects: Theoretical and practical . As concerns the theoretical aspect, it introduces a brief presentation for the concept of the praise emphasis which is like the dispraise and its opposite as viewed by those concerned with rhetoric

As regards the practical aspect, two types from this rhetorical aspect were studied . They are praise emphasis which is like the dispraise and the dispraise emphasis which is like the praise Examples regarding the apove two types were given .

The present study concludes that this rhetorical technique has importance in its study of the Quranic systems pecause it has a great influence in giving the rhetorical and aesthetical

meaning to the Quranic message .

Keyword : confirm , praise , vilification **المقدمة**

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد الأمين، خير خلقه، وخاتم أنبيائه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الميامين، أمّا بعد:
فتستأثر الدراسات البلاغية القرآنية بأهمية كبيرة من لدن الباحثين، وتأتي في مقدمة أوليات الاهتمام بما تمتلكه وتحققه من ميزة تكشف عن الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم.

فقد كثرت الدراسات حول نظم القرآن وأساليبه، فتنورت وأنارت به، ولكن تبقى الحاجة ملحة ودائمة إلى دراسته والوقوف على أساليب نظمه، وتنوع فنونه، فهو الكلام الذي لا تنفد عجائبه، ولا تتطوي أسراره، هذا الذي حفّزني إلى دراسة تختص بجانب من جوانبه البلاغية في محاسن الكلام، فوق الاختيار على ظاهرة (تأكيد المدح والذم بما يشبه ضدّهما في القرآن الكريم دراسة تحليلية بلاغية)، وهي ظاهرة بلاغية واضحة جدّ الوضوح في القرآن الكريم، وعلى الرغم من أهمية هذه الوجهة الإعجازي إلاّ أنّه لم تفرد له دراسة علمية تلم شتات الموضوع، وتبحث فيه بدقة مستندة إلى مفهوم محدد، وتتنظر إليه على أنّه ظاهرة بلاغية متميزة في بعض سور القرآن وآية.

وقد حاولت في هذه الدراسة أنّ أبين جمالية أسلوب القرآن الكريم في توظيف هذا الفن البديعي الجميل وطرق أدائه في التنقل بين أجزاء الكلام. ومن أجل الكشف عن أسرار هذا الفن البديعي، وقد اخترت أن تكون دراستي لهذا الفن في أغنى الكتب وأجلها علماً وأرقاها مكانة ألا وهو كتاب الله العزيز (القرآن الكريم).

وقد اقتضى منهجي الاعتماد على دراسة النصوص القرآنية التي وردت فيها ظاهرة (تأكيد المدح والذم) وتحليلها.

وقد أجريت عملية إحصائية لآيات هذه الظاهرة في القرآن الكريم، وأنا لا أزعّم أنّي بلغت في هذه الإحصاء مرتبة الدقة، ولكن يعلم الله أنّ الباحث لم يدخر جهداً في سبيل رصد المواضع التي وردت فيها هذه الظاهرة في القرآن الكريم.

ولا ادَّعي في ما قدَّمته الكمال؛ لأنَّ الكمال لله وحده، وحسبي أنَّني قدَّمت خدمة
لكتاب الله العزيز.

الباحث

التمهيد

تأكيد المدح بما يشبه الذم ونقيضه

بحث البلاغيون في دراساتهم البلاغية في علم البديع أسلوب (تأكيد المدح بما يشبه الذم) و(تأكيد الذم بما يشبه المدح) فتحدَّثوا عن مفهومه وجاءوا بالشواهد النثرية والشعرية له، ودرسته في هذا البحث تأتي مشاركةً لهذه الدراسات في محاولة منِّي لفهم طبيعته من خلال دراسةٍ تطبيقية وتحليلية له في النص القرآني، ولعلَّ من المناسب أن نعرِّف بهذا الأسلوب البديعي قبل تناوله في الآيات القرآنية الكريمة، ولا شكَّ في أن صورة التعريف به يجب أن تشمل المعنى اللغوي والمفهوم الاصطلاحي عند البلاغيين، ولذلك أبدأ بالمعنى اللغوي.

المعنى اللغوي:

التوكيد والأکید: الوثيق، يقال: أكَّدَ العهدَ والعقدَ، وقد أكَّدتَ الشيءَ ووَكَّدتُهُ: وثَّقْتُهُ، والتوكيد أفصح من التأكيد.^(١) و أما المدح لغة فبالرجوع إلى المعجم العربي نجد جذر الفعل (م، د، ح) «يدلُّ على وصف محاسن بكلام جميل، ومدحه يمدحه مدحاً أحسن عليه الثناء والأمدوحة: المدح...»^(٢)، وقد عرّفه الجوهري (ت ٣٩٣هـ) بأنَّه: «الثناء الحسن وقد مدحه وامتدحه بمعنى، وكذلك المدحة والمديح والامدوحة، وتمدح الرجل: تكلف ان يمدح، ورجل ممدوح: ممدوح جداً...»^(٣) فالمدح هو الثناء خلاف الذم، أمَّا الذم لغة فهو «نقيض المدح يقال ذمته فهو ذميم... وأذامه أي

(١) ينظر: لسان العرب، والقاموس المحيط:، مادتي (أكَّد) و(وَكَّد).

(٢) مقاييس اللغة: ٣٠٨/٥.

(٣) تاج اللغة وصحاح العربية: ١/٤٠٣؛ وينظر: القاموس المحيط: ١/٢٤٨.

أجاره وأذمه: أي وجده مذموماً... وأدام الرجل: أتى بما يذم عليه... ورجل مذمّ أي مذموم جداً... وشيء مُذمّ أي معيب». ^١ فهو يدل على صفات خلاف الحمد.

المعنى الاصطلاحي:

وهو من الأساليب الرائعة التي وقف عليها علماء البلاغة الأوائل، وفصلوا الحديث فيه وفي أمثله مطلقين عليه تسميات مختلفة، كالرجوع أو الاستثناء، أو تأكيد المدح بما يشبه الذم، وهذا الأخير هو الأكثر شهرة واستعمالاً عند علماء البلاغة، فهم يتناولون تأكيد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح في معرض واحد؛ ذلك لأنّ الموضوعين مبنيان على أسلوب بلاغي واحد وهو «بناء حكم معنوي موهم بخلاف المقصود ثم الاستثناء منه بما يثبت غرض المتكلم» ^٢. وهو من محاسن الكلام عند ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) فقد ذكره ولكنه لم يعرفه ^(٣) بل أورد له مثلاً قول النابغة الجعدي ^(٤):

فَتَى كَمُلْتَ أَخْلَافُهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا

ولم يكتفِ أبو علي الحاتمي (ت ٣٨٨هـ) بتسمية واحدة لهذا المصطلح، بل أطلق عليه أكثر من تسمية فسماه مرّة (الاستثناء) وأخرى (تأكيد المدح بما يشبه الذم)، ولم يعرفه بل قال في باب الاستثناء: « وأحسب أنّ أول من بدأ به النابغة الذبياني فأحسن كلّ الإحسان في قوله:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ قُلُوبٌ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَائِبِ ^(٥)

فهذا تأكيد للمدح بما يشبه الذم»، ^(١) وسماه أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) بـ(الاستثناء) ^(٢). وذكر أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) الاستثناء على أنّه من أبواب البديع ولم يزد على ذلك سوى إيراده بيت النابغة الذبياني شاهداً على هذا الباب .

(١) تاج اللغة: ٥ / ١٩٢٥-١٩٢٦.

(٢) البلاغة والتطبيق: ٤٤٦.

(٣) ينظر: البديع: ٦٢.

(٤) ديوان النابغة الجعدي: ١٧٤.

(٥) ديوان النابغة الذبياني: ٦٨.

وأفرد ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ) باباً للاستثناء واستهله بالإشارة إلى تسمية ابن المعتز، وذكر بيتي النابغة شاهداً على هذا الباب.^(٣) وذكره أسامة بن منقذ (ت ٤٨٤هـ) باسم الرجوع والاستثناء فقال: «اعلم أن الرجوع والاستثناء هو أن تذكر شيئاً ثم ترجع عنه»^(٤) وهو ليس كذلك عند ابن أبي الاصبع المصري (ت ٦٥٤هـ) إذ رأى أنّ الاستثناء غير تأكيد المدح، إذ يقول: «وقد خلط المتأخرون باب الاستثناء بهذا الباب، وكنت أرى أنهما باب واحد، إلى أن نبهني عليه عند قراءته من ألفت له هذا الكتاب، فرأيت إفراده منه»^(٥) وأرى أنه لم يقصد بذلك الاستثناء جملة وتفصيلاً، وإنما أراد ما دخل من الاستثناء في موضوع المدح بما يشبه الذم أو عكسه، فليس كل استثناء مدحاً بما يشبه الذم أو عكسه ويصحّ العكس.

وأدخله السكاكي (ت ٦٢٦هـ) في التحسين المعنوي،^(٦) وقال بدر الدين ابن مالك (ت ٦٨٦هـ) عن تأكيد المدح بما يشبه الذم: «أن تنفي عن الممدوح وصفاً معيباً ثم تعقبه بالاستثناء فتوهم أنك ستثبت له ما يذم به فتأتي بما من شأنه أن يذم به وفيه المبالغة بالمدح».^(٧) وقد سمّاه العلوي (ت ٧٤٩هـ) التوجيه،^(٨) وذكر أنه يرد في البلاغة على استعمالين:^(٩)

الأول: أن يؤكد المدح بما يكون مشبهاً للذم، بأن تنفي عن الممدوح وصفاً معيناً ثم تعقبه بالاستثناء فتوهم أنك استثبيت ما يذم به فتأتي بما شأنه أن يمدح به وفيه المبالغة في مدح الممدوح، ومنه قول النابغة المتقدم.

(١) حلية المحاضرة: ١/١٦٤.

(٢) ينظر: كتاب الصناعتين: ٤٠٨.

(٣) ينظر: العمدة: ٤٨/٢.

(٤) البديع في نقد الشعر: ١٢٠.

(٥) تحرير التحبير: ١٣٤.

(٦) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٠٢.

(٧) المصباح في علم المعاني والبيان والبديع: ١٠٩.

(٨) ينظر: الطراز: ٣/١٣٦.

(٩) ينظر: المصدر نفسه: ٣/١٣٦-١٣٧.

الآخر: أن يمدح شيء يقتضي المدح بشيء آخر كقول المتنبي:
نَهَبَتْ مِنَ الْأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَيْتَهُ لَهَبَّتِ الدُّنْيَا بِأَنَّكَ خَالِدٌ^(١)
«فإنّ مدحه ببلوغه النهاية في الشجاعة إذا كثر قتلاه بحيث لو ورث أعمارهم
لخُدّ في الدنيا على زجه استتبع مدحه بكونه سببا لصلاح الدنيا ونظامها...»^(٢)، وقال
ابن الأثير الحلبي (ت ٧٣٧هـ): «حقيقة هذا النوع أن يكون الإنسان آخذاً في مدح
فيستثني في بعضه فيعتقد السامع أنّ ما بعد الاستثناء يكون نوع ذم أو عيب في
الممدوح استثنى منه المادح في مدحه، فإذا تكلمة الاستثناء توجب تأكيداً للمدح
الأول قطعاً له»^(٣). وسمّاه آخرون المدح في معرض الذم كما فعل ذلك ابن معصوم
المدني^(٤)، وسمّاه آخرون (النفي والجحود)^(٥)، وسمّاه بعض أهل التفسير بـ(تأكيد
الشيء بما يشبه نقيضه أو ضدّه)^(٦)، وتناوله البلاغيون بعد ذلك بالدراسة^(٧).

بلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه:

تقوم بلاغة أسلوبية (تأكيد المدح بما يشبه الذم) و(تأكيد الذم بما يشبه المدح)
في الأصل على مباغته السامع بخلاف ما يتوقعه؛ لأنّ المتكلم عندما يسوق صفة
مدح ثمّ يورد أداة استثناء يتوقع السامع أن يسمع منه صفة ذم بحكم هذه الأداة التي

(١) شرح ديوان المتنبي للمعري: ٢١٢/٣.

(٢) الإيضاح: ٢١٢.

(٣) جواهر الكنز: ٢٠٦.

(٤) ينظر: أنوار الربيع: ٢٧/٦، ومعجم المصطلحات البلاغية: ١١/٢.

(٥) ينظر: المصدران السابقان.

(٦) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧٥/١٧.

(٧) ينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان: ١٩٢، والإيضاح: ٢٤٦-٢٤٧،

والتلخيص: ٣٥٠، وشرح التلخيص: ٣٨٦/٤، ومعتزك الأقران: ٢٩٨/١، والإتقان:

٢٦٦/٢٦٥، والمطول: ٤٣٩، ومعجم المصطلحات البلاغية: ١٠/٢-١٤، والبلاغة

الاصطلاحية: ٣٣٤-٣٣٨، وعلم البديع (د. عبد العزيز): ١٥٦، وعلم البديع (بسيوني):

تفيد أنّ ما بعدها يأتي بخلاف ما قبلها حكماً ومفهوماً، أمّا حين يسمع مدحاً آخر فإنّه يباغت ويقع في حالة من الشعور بما طلع عليه من امر توقّع نقيضه وخلافه، وكذلك عندما يتلقى صفة ذم بعدها أداة استثناء يتوقّع أنّ يسمع صفة مدح ترشحها أداة الاستثناء، ولكنه يسمع صفة ذمّ أخرى يشعر بخيبة توقعه ويباغت بخلاف ما تهيأ له يقيناً.^(١) ففي هذين اللونين البديعيين نوع من التأكيد والتقوية في إثبات المراد مدحاً أو ذماً، فبعض ضرورتهما يفيد التأكيد من ناحيتين: أنّه إثبات للشيء ببينة وبرهان، بتعليق وجوده على المحال، وإن النطق بأداة الاستثناء يوهم أنّ ما بعدها مُخرج مما قبلها، ولكنه هنا يأتي من جنسه؛ لذا يكون مؤكداً ومقرراً له، فإن كان مدحاً تأكّد المدح، وإن كان ذماً تأكّد الذم، وبعض ضرورتهما يفيد التأكيد من ناحية الاستثناء، وعلى كلّ ففي الأسلوبين تأكيد وتقوية.^(٢)

فضلاً عمّا يحملانه للمتلقّي أو السامع من المفاجأة، فإنّ المتكلم عندما ينطق بأداة الاستثناء أو الاستدراك يتوقّع المتلقّي أن المستثنى سيكون مغايراً ومخالفاً للمستثنى منه، ولكن ما إن يكمل قراءة العبارة حتى يأتي المستثنى مؤكداً للمستثنى منه، فتكون المفاجأة والمباغته التي ترفع الأستار عن الحقائق لتكسب المعاني طرافة، ولتثير في النفوس استحساناً وبهجة، وبهذا يتأكد المدح في أسلوب تأكيد المدح عندما يؤتى بما يوهم السامع أنّه ذمّ فيتبين أنّه مدح أيضاً، ويتأكد الذم في أسلوب تأكيد الذم عندما يؤتى بما يوهم السامع أنّه مدح فيتبين أنّه ذمّ أيضاً. وفي هذين اللونين طرف من الخلابة، وهما مشتملان على عنصري المفاجأة والمباغته، فتأتي النتيجة فيهما غير متوقّعة، وعلى خلاف ما تفيد المقدمات، وهذا يثير الفكر، ويوقظ العقل، ويشوق النفس، ويدفع إلى التأمل والتدبر والاندماج في خبايا الأسلوب لكشف الحقيقة.

(١) ينظر: فنون بلاغية: ٣٠٨-٣-٣٠٩.

(٢) ينظر: دراسات منهجية في علم البديع: د. الشحات محمد أبو سنيت: ١٩٤-١٩٥.

«واللونان يساعدان على ربط الكلام، ويعملان على تقوية أواصر العلاقة بين مفرداته من خلال الاستثناء الذي يجعل ما قبله شديد الصلة بما بعده، إذ بهما تكتمل الفائدة ويتحدد المراد»^(١).

وإذا كان عنوان هذين اللونين يوحي بقصرهما على معاني المدح والذم إلا أنَّ التحقيق يبين عدم اقتصارهما على ذلك، فإثباتان في المعاني كافة، وقد نبّه العلامة التفتازاني على هذا الأمر الدقيق، فذكر أن هذه التسمية جارية على الأعم الأغلب، وإلا فقد يكون ذلك في غير المدح والذم، ويكون من محسنات الكلام، وبناءً على هذا اختار التفتازاني أن يسمي هذا الأسلوب تأكيد الشيء بما يشبه نقيضه^(٢)، وهي تسمية جديرة بالقبول؛ لأنها تجمع اللونين تحت عنوان واحد، تتضوي تحته معاني المدح والذم وغيرهما.

المبحث الأول:

تأكيد المدح بما يشبه الذم

وفي هذا النوع يتم نفي صفة الذم ثم يستثني صفة المدح، فهو من التوكيد المعنوي، إذ يزيد وضوح المعنى، ويزيل التردد فيه بتوكيده. وتسمية هذا اللون بتأكيد المدح بما يشبه الذم باعتبار الأعم الأغلب؛ لأنه يقع في غير المدح والذم، كما سنرى في بعض الأمثلة التي سنعرضها ومن هنا يحسن أن يسمي تأكيد الشيء بما يشبه نقيضه^(٣).

ويبدو أنَّ بنية هذا الأسلوب البديعي تنطلق من (ذم أو مدح) ثم استثناء ثم (مدح أو ذم)، فيكون الذكر الثاني رجوعاً بعد الاستثناء لتأكيد الذكر الأول.

(١) المصدر نفسه: ١٩٥.

(٢) ينظر: المطول: ٤٣٩، وتفسير التحرير والتنوير: ٥٨/٣.

(٣) ينظر: المطول: ٤٣٩، وتفسير التحرير والتنوير: ٥٨/٣.

وهذا الفن على ثلاثة أضرب: (١)

الأول: وهو أن يستثنى فيه من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح له بتقدير دخولها فيها، وجعل هذا الضرب الأبلغ والغاية القصوى في المدح كقول النابغة الذبياني:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيُؤْفَقُهُمْ بِهِنَّ فُلُوقٌ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَّابِ (٢)

فليس فلوق السيف من العيب؛ لأنه محال، فهو كناية عن كمال الشجاعة، فالعلة البلاغية فيه أن مدح على مدح فهو «أبهى وأفخم أنواع المدح ولعل السر النفسي بذلك فيما يظهر هو ما في هذا الأسلوب من معنى المباغته والمفاجأة التي تكسبه طرافة وتثير حوله تنبيهاً...»^٣ ولقد بين المراغي النكته البلاغية فيه بقوله: «وفي هذا الأسلوب تأكيد من وجهين:

الأول: أنه كدعوى أقيم عليها البرهان إذ كأنه استدل على نفي العيب عنهم بتعليق وجوده على وجود ما لا يكون وما لا يتحقق بحال.

الثاني: أن الأصل في الاستثناء الاتصال فإذا ما تلفظ المتكلم بـ(غير) أو (إلا) أو نحوهما دار في خلد السامع قبل النطق بما يذكر بعدها أن الآتي مستثنى من المدح السابق وأنه يراد به إثبات شيء من الذم وهذا ذم، فإذا أتت بعدها صفة مدح تؤكد المدح لكونه مدحاً على مدح في أبهى قالب وآنق منظر».^(٤)

ومن هنا تبدو أهمية عنصر المفاجأة لتأثيره في السامع، إذ يذهب به مذهباً آخر غير ما يتوقع السامع لما ألفه في أسلوب الاستثناء من تغاير لما بين المستثنى

(١) ينظر: حسن التوسل: ٢/٢٢٩، ونهاية الأرب: ٧/١٢١، والإيضاح: ٢٤٦، والتلخيص: ٣٨٠، وشروح التلخيص: ٤/٣٨٦، وعلوم البلاغة (البيان والمعاني والبدیع) للمراغي: ٣٥٤، وشي الربيع بالوان البديع، د. عائشة حسين: ١٣٠-١٣٤، ودراسات منهجية في علم البديع، د. الشحات محمد أبو سنيت: ١٨٤-١٩٠.

(٢) ديوان النابغة الذبياني: ٦٨.

(٣) البديع في ضوء أساليب القرآن: ٨٤.

(٤) علوم البلاغة للمراغي: ٣٥٤-٣٥٥، وينظر: حاشية الدسوقي: ٤/٣٨٨.

والمستثنى منه فإذا به يتفاجأ لتشابه الطرفين على غير المألوف أي غير ما يتوقعه السامع.

والعلة البلاغية فيه أن التأكيد فيه من الوجه الثاني أي أن «هذا النوع أقل من الأول في الجمال والحسن؛ لأنه أفاد التأكيد من جهة واحدة وهي أن ذكر اداة الاستثناء قبل ذكر المستثنى يوهم إخراج شيء مما قبلها فإذا ذكر بعد الأداة صفة مدح أخرى جاء التأكيد ولا يفيد التأكيد من أنه كدعوى الشيء بالبرهان والدليل كما في النوع الأول»^(١)

الثاني: وهو أن يثبت لشيء صفة مدح وتعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى، ومن هذا قول النابغة الجعدي:

فَتَى كَمُلْتَ أَخْلَاقَهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا^(٢)

فقد أثبت له كمال الأخلاق، ثم استثنى فأوهم أنه سيثبت صفة مغايرة لما تقدم ولكنه أثبت صفة مدح أخرى وهي الجود، فتأكد المدح بمدح آخر جاء على خلاف ما يتوقع السامع.

الثالث: هو أن يؤتى بمستثنى فيه معنى المدح معمولاً لفعل فيه معنى المدح ويكون الاستثناء حينئذٍ مفرغاً.

وفي ضوء ما تقدم يمكننا تتبع المواضع القرآنية التي تحتضن هذا الأسلوب البديعي، ففي قوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ}.^(٣)

لقد جاء صدر أسلوب المدح بما يشبه الذم في هذه الآية (استفهاماً إنكارياً) وهو بمنزلة النفي، ولكن (هل تتقون منّا) أبلغ في تقرّيع أهل الكتاب وتوبيخهم، وكأنّ دعواهم زائفة لم تلقَ فهماً ولا متلقين، والمؤمنون عنها معرضون، فجاء الخطاب لهم عبر أسلوب الاستفهام الذي يفيد طلب المجهول، والأمر هنا ليس

(١) البديع في ضوء أساليب القرآن: ٨٥.

(٢) ديوان النابغة الجعدي: ١٧٤.

(٣) سورة المائدة: ٥٩.

مجهولاً فحسب، بل ليس له جواب؛ لأنَّ الإيمان بالله نعمة والإعراض عنها نقمة ومن هنا لم يذكر أهل الكتاب جواباً لـ(هل) لعجزهم عن ذلك، «فإنَّ الاستثناء بعد الاستفهام الخارج مخرج التوبيخ والانكار على ما عابوا به من الإيمان يوهم بأنَّ يأتي بعده ما يوجب أن ينقم على فاعله مما يذم به، فلما أتى بعد الاستثناء ما يوجب مدح فاعله كان الكلام متضمناً للمدح بما يشبه الذم»^(١)، قال ابن عاشور: «والذي يظهر لي أن يكون قوله: (وأنَّ أكثركم فاسقون) معطوفاً على (أن آمنا بالله) على ما هو المتبادر، ويكون الكلام تهكماً ، أي تنقمون منَّا أننا آمنا كمايمانكم وصدقنا رسلكم وكتبكم ، وذلك نَقْمُهُ عجيب وأننا آمنا بما أنزل إلينا وذلك لا يهكم . وتنقمون منَّا أن أكثركم فاسقون، أي ونحن صالحون ، أي هذا نَقْمُ حَسَدٍ ، أي ونحن لا نملك لكم أن تكونوا صالحين، فظهرت قرينة التهكم فصار في الاستفهام إنكار فتعجب فتهمم ، تولد بعضها عن بعض وكلها متولدة من استعمال الاستفهام في مجازاته...»^(٢)، وزاد على ذلك بقوله: وهذا من تأكيد الشيء بما يشبه ضدَّه.^(٣) فابن عاشور يستعمل مصطلح (تأكيد الشيء بما يشبه ضدَّه) أكثر من استعماله مصطلح (تأكيد المدح بما يشبه الذم).

ففي هذا الاستثناء نلاحظ أن الخطاب يتناول طرفين متقابلين هما المؤمنون واهل الكتاب، فما قبل الاستثناء يعدّ ذمّاً للطرف الثاني (أهل الكتاب)، ومدحاً ضمناً للطرف الأول (المؤمنين) ذلك لتحملهم الأذى والصبر عليه وما بعد الاستثناء كان المدح واضحاً للطرف الأول ، بقوله: (أن آمنا) وهو متضمن الذم للطرف الثاني، وما يعمق هذه الدلالة وجود الاستفهام الانكاري التعجبي بقوله: (هل تنقمون منا)، إذ يدل هذا الاستفهام على مدح المنتقم منهم، وذم المعارضين لهم.

إذ قدّم في هذا الخطاب ذكر المخاطبين الناقمين على ضمير المتكلمين ثم أخرجهم ما بعد الاستثناء لبيان فسقهم وإمعاناً في تحقيرهم، أمّا ما بعد الاستثناء فقد

(١) بديع القرآن: ٥٠، والإتيان: ٨٩/٢، ومعتك الأقران: ٢٩٨/١.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٢٤٥/٧.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢٤٤/٧.

قدّم ذكر ضمير المتكلمين بصفة مدح وذلك لتعميق دلالة المدح، ثم أتى بذكر المخاطبين الفاسقين ليحيل رجوع كل صفة من المدح والذم إلى ما يناسبها من الطرف الآخر على غير ترتيب.

ومثله قوله تعالى: {وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} (١) أي ما تعيب منا إلا أصل المناقب والمفاخر كلها وهو الإيمان بآيات الله عزّ وجلّ، (٢) وهذا ليس بعيب، فلا عيب يستوجب النعمة.

فالله عزّ وجلّ يحكي في هذه الآية مقالة سحرة فرعون - لَمَّا آمَنُوا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام - فيقولون لفرعون: وما تعيب منا إلا أسس المناقب والمفاخر وأصول النجاة، وهو الإيمان بالله وآياته، إن كان الإيمان بالله عيباً، وكون الإيمان عيباً مستحيل، فيكون ثبوت العيب منهم مستحيلاً، فنرى في الآية صفة ذم منفية استثنى منها صفة مدح، وهذا المستثنى معمول للفعل الذي فيه معنى الذم - على الاستثناء المفرغ - وهذا الضرب من تأكيد المدح بما يشبه الذم الذي يكون فيه الاستثناء مفرغاً، ويكون العامل مما فيه معنى الذم، ويكون المستثنى مما فيه معنى المدح.

ومنه قوله تعالى: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (٣) فقد أثبت صفة مدح للمهاجرين وهي أنهم أخرجوا من ديارهم بغير حق مغلوبين على أمرهم ثم أتى بعدها بأداة استثناء فأشعر ذلك واوهم أنّه سيأتي بصفة ذم بعدها، ولكنه وصفهم بأنهم مؤمنون بالله، وهذا من صفات الكمال، فيكون مدحاً على مدح وهذا يفيد التأكيد.

(١) سورة الأعراف: ١٢٦.

(٢) الكشاف: ١٠٤/٢.

(٣) سورة الحج: ٤٠.

فظاهر الاستثناء أنّ ما بعده سيكون صفة تقتضي إخراج المهاجرين ولكننا وجدنا أن صفة مدح تقتضي الإكرام لا الإخراج، فيكون ذلك تأكيداً للمدح بما يشبه الذم.

ونجد هذا المعنى عند ابن عاشور إذ قال: «والاستثناء في قوله: (إلا أن يقولوا ربنا الله) استثناء من عموم الحق، ولما كان المقصود من الحق حقاً يوجب الإخراج، أي الحق عليهم، كان هذا الاستثناء مستعملاً على طريقة الاستعارة التهكمية، أي إن كان عليهم حق فهو أن يقولوا ربنا الله، فيستفاد من ذلك تأكيد عدم الحق عليهم بسبب استقراء ما قد يُتخيل أنه حق عليهم. وهذا من تأكيد الشيء بما يوهم نقضه. ويسمى عند أهل البديع تأكيد المدح بما يشبه الذم»^(١).

لقد جاء أسلوب المدح بما يشبه الذم في هذه الآية عبر بنية ظاهرية منقلبة عن بنية عميقة يدلّ عليها سياق الاستثناء، فهي استثناء مفرّغ لبنية باطنة تقديرها: الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق لا شيء إلا أن يقولوا...ولذا ينصرف ذهن المتلقي إلى أنّ الآتي بعد الاستثناء سيكون تعليلاً يسوّغ إخراج الكافرين للمؤمنين ظلماً وعدواناً، فإذا هو على خلاف هذا التقدير، إذ جاء ما بعد الاستثناء كاشفاً للظلم الواقع على المؤمنين ومبرزاً جرم الكافرين، وهنا يحصل عنصر المفاجأة لدى المتلقي ومما يزيد البنية تأكيداً فضلاً عما سبق هو دلالة الشرط التي تلوح في التركيب: (لينصرن الله من ينصره) إذ أثبت للمؤمنين قبل الاستثناء صفة عظيمة وهي نصرتهم للحق ولذا استحقوا وعد الله لهم بالنصر بعد أن أُخرجوا من ديارهم.

ومنه قوله تعالى: {لَا يَدْؤفُونَ فِيهَا الْمَوْتِ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} ^(٢) فالآية بشارة لأهل الجنة بخلودهم فيها، إذ نفى عنهم ذوق الموت، واستثناء الموتة الأولى من قبيل تأكيد الشيء بما يشبه ضده، زيادة في تحقيق انتفاء

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٢٧٥/١٧.

(٢) سورة الدخان: ٥٦.

ذوق الموت عن أهل الجنة فكأنه قيل: لا يدوقون الموت البتة، يعني إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها فإنَّهم يدوقونها، لكنها ليست كذلك لمضي وقتها في الدنيا.^(١) ومنها قوله تعالى: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا} ^(٢) فقد علّق الآلوسي على هذه الآية قائلاً: «قوله: (إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا)... أي نسلم سلاماً والتكرير للدلالة على فشو السلام وكثرته فيما بينهم؛ لأنَّ المراد سلاماً بعد سلام، والاستثناء منقطع وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم، محتمل لأنَّ يكون من الضرب الأول منه وهو أن يستثني من صفة ذمّ منفية عن الشيء صفة مدح له بتقدير دخولها فيها، بأنَّ يقدر السلام هنا داخلاً فيما قبل فيفيد التأكيد من وجهين. وأنَّ يكون من الضرب الثاني منه وهو أنَّ يثبت لشيء صفة مدح ويعقب بأداة استثناء يليها صفة مدح أخرى لا يقدر ذلك، ويجعل الاستثناء من أصله منقطعا فيفيد التأكيد من وجه...» ^(٣) فقد استثنى من صفة ذمّ منفية وهي (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً) عن أهل الجنة في دار الآخرة -الذين هم المؤمنون في دار الدنيا- صفة المدح (إلّا سلاماً) بتقدير دخولها في صفة الذم المنفية، فاللغو محجوب عن أسماعهم إلّا السلام والدعاء لهم بالسلام فهو مسموع عندهم تطيب به نفوسهم، وهنا يتطابق التعبيران ما قبل الاستثناء وما بعده، فقد قال ابن عاشور إنّه: «من تأكيد الشيء بما يشبه ضده المشتهر في البديع باسم تأكيد المدح لما يشبه الذم ، وله موقع عظيم من البلاغة...» ^(٤)، وبذا تكون ظاهرة المشابهة هي الغالبة في هذا الأسلوب على الرغم مما يحويه بين طياته من أسلوب موهم للسامع في أنَّ التالي غير السابق بورود النفي والاستثناء المنقطع.

(١) ينظر: التبيان في البيان للطبيي: ٣٩٢، وتفسير التحرير والتنوير: ٣١٩/٢٥.

(٢) سورة الواقعة: ٢٥-٢٦.

(٣) روح المعاني: ١٣٩/٢٧، وينظر: الأقصى القريب: ٧٣-٧٤، ومعتك الأقران: ٢٩٨/١، والإتقان: ٢٦٦/٣.

(٤) تفسير التحرير والتنوير: ٢٩٧/٢٧.

فصفة الذم المنفية عن الجنة هي اللغو والتأثيم، وقد استثنى منها صفة المدح وهي التسليم، أي أن أهل الجنة لا يسمعون فيها لغواً ولا هزلاً ولا أثماً أبداً إلا قول السلام، إن كان ذلك لغواً وهزلاً وذمّاً أو عيباً، وكون قول السلام هزلاً محالاً، فيكون اللغو والتأثيم ووجوده في الجنة محالاً، فكأنه في المعنى تعليق على المحال... فيكون ذلك تأكيداً لمدح الجنة وخلوها من اللغو ومن التأثيم بطريق تشبه الذم.^(١)

لقد أضفى أسلوب المدح بما يشبه الذم على التركيب في هذه الآية ملمحاً دلاليّاً معجزاً تمثّل بحصر السلام على مسامع المتقين وذلك أن النفي والاستثناء إذا اجتمعا أفادا التوكيد والحصر، ويبقى لكل منهما معناه، فالنفي أزاح اللغو عن تلك الأسماع، والاستثناء أكد دوام السلام عليها.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} ^(٢) فسماع اللغو منفي منهم، وسماع السلام ثابت لهم، وكلاهما مدح وتكريم لأهل الجنة، «ف قوله (إِلَّا سَلَامًا) استثناء منقطع وهو مجاز من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه».^(٣)

ومنه قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا} ^(٤)، قال ابن عاشور معلقاً على هذه الآية: « واستثناء الفرار من عموم الزيادات استثناء منقطع . والتقدير : فلم يزد لهم دعائي قريباً من الهدى لكن زادهم فراراً... وإسناد زيادة الفرار إلى الدعاء مجاز؛ لأنّ دعاءه إياهم كان سبباً في تزايد إعراضهم وقوة تمسكهم بشركهم. وهذا من الأسلوب المسمّى في علم البديع تأكيد المدح بما يشبه الذم ، أو تأكيد الشيء بما يشبه ضده ، وهو هنا تأكيد إعراضهم المشبه بالابتعاد بصورة تشبه ضد الإعراض»^(٥)

(١) ينظر: وشي الربيع بألوان البديع، د. عائشة حسين: ١٣٠.

(٢) مريم: ٦٢.

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ١٦ / ١٣٧، وينظر: روح المعاني: ١٦ / ٤٢٩.

(٤) سورة نوح: ٥-٦.

(٥) تفسير التحرير والتنوير: ٢٩ / ١٩٤.

المبحث الثاني:

تأكيد الذم بما يشبه المدح:

وهو عكس ما ذكر في تعريف المدح بما يشبه الذم، أي أن تدم أولاً ثم توهم أنك ستمدح لكنك تدم ثانياً، وهو من التوكيد المعنوي ففيه يتأكد الذم ويزال التردد ويزداد وضوح المعنى، وهو قليل في الأدب العربي، فلم يكثر الشعراء منه وتناولوه خفيفاً، وأمثلة الشعر منه، على عكس تأكيد المدح بما يشبه الذم، لكنه يتنوع مثله إلى ثلاثة أنواع: (١)

الأول: أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشيء صفة ذم ثابتة بتقدير دخولها في صفة المدح المنفية.

الثاني: أن يثبت للشيء صفة ذم، وتعقب بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى له.

الثالث: أن يؤتى بمسئتي فيه الذم معمولاً لفعل فيه معنى المدح، ويكون الاستثناء حينئذٍ مفرغاً.

كما نستنتج أن بنيته هي نفسها بنية المدح بما يشبه الذم، إلا أن الفرق يتولد من دلالته على الذم بما يشبه المدح..

وفي ضوء ما تقدّم يمكننا تتبع المواضع القرآنية التي تخص هذا الأسلوب البديعي، ومنه قوله تعالى: {يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} (٢) فالخطاب الإخباري في هذه الآية يوضح حال المنافقين في إظهارهم ما لا يبطنون؛ إذ جاء خطابهم بضمير الغيبة وهذا يدل على تحقيرهم وعدم استحقاقهم أن يخاطبوا بضمير الحضور. فإن ما خوطبوا به قبل الاستثناء ذم صريح لهم، فقد جاء قوله (ما نقموا) بعد بيان تردهم في النفاق والكفر؛ لينبّههم «على إنه

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٢٤٦، والمطول: ٦٧٦، وشي الربيع بألوان البديع:

١٣٥-١٣٧، ودراسات منهجية في علم البديع: ١٩١-١٩٤.

(٢) سورة التوبة: ٧٤.

ليس هناك شيء ينقمون منه»^(١) حتى ليظن المتلقي أن القطع في الكلام سيؤدي إلى مدحهم، بذكر ما يعيب المؤمنين ولو بالصورة التي يعتقدونها الكافرون؛ إلا أن صدمة المفاجأة تحدث عند استئناف الكلام مؤكداً الذم عن طريق إبراز صفة مدح للمؤمنين تعلي شأنهم وهي استغناؤهم بفضل الله ورسوله، أمّا المنافقون فقد هبط شأنهم مرّة أخرى بهذا الاستثناء المفاجئ بعد لفظ (نقموا) الذي يستدعي تعليل النعمة وبيان حال المنقوم منه فإذا به فعل يعلو شأن المؤمنين ويحمد عملهم، فينقلب بذلك ذمّاً على المنافقين الذين أخبروا مرّة أخرى بما منه الله ورسوله على المؤمنين، وهو خطاب يصرح بدمهم وتعبيرهم. قال ابن عاشور: «وجملة (وما نقموا) عطف على (ولقد قالوا) أي والحال أنهم ما ينقمون على النبي صلى الله عليه وسلم ولا على دخول الإسلام المدينة شيئاً يدعوهم إلى ما يصنعونه من آثار الكراهية والعداوة... وقوله: (إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) استثناء تهكمي. وهو من تأكيدات الشيء بما يشبه ضدّه... ونكته أن المتكلم يظهر كأنه يبحث عن شيء ينقض حكمه الخبري ونحوه فيذكر شيئاً هو من مؤكيدات الحكم للإشارة إلى أنه استقصى فلم يجد ما ينقضه. وإنما أغناهم الله ورسوله بما جلبه حلول النبي عليه الصلاة والسلام بينهم من أسباب الرزق بكثرة عمل المهاجرين وبوفرة الغنائم في الغزوات وبالأمن الذي أدخله الإسلام فيهم...»^(٢)، فهؤلاء المنافقون الذين اقترفوا تلك الجرائم، ما أنكروا وما عابوا لعلّة من العلل إلا لإغناء الله إياهم، فلقد كانوا حينما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة في غاية من ضنك العيش، لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة، فأثروا بالغنائم، والإغناء من شأنه أن يكون صفة مدح ولكنه مع هؤلاء صفة ذم؛ لأنّه أقرن بالنكران والجحود، ولا شك أن الإغناء مع النكران والجحود يدلّ على طبع رديء وخسّة وهذه من صفات الذمّ، فلما استثنى من ذلك

(١) تفسير الفخر الرازي: ١٤٠/١٥.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٢٧٠/١٠.

قوله: (وما نقموا) تأكيد على وجه أبلغ، إذ المقام يقتضي التنفير من صفات المنافقين وشدّة التحذير من مكرهم.^(١)

وقريب من هذه قوله تعالى: {فُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ④ النَّارِ ذَاتِ الْوُؤُودِ ⑤} إذ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑧ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ^(٢) ففي هذه الآية المباركة يلمس أسلوب تأكيد الذم بما يشبه المدح جانباً جوهرياً في الحياة البشرية يتمثل بضيق الملوك الكافرين المتجبرين بالحق وأهله، ويصور هذا الأسلوب وسياقه عمق الكراهية، والغيط الذين ملكا هذا الملك وأعوانه حتى ارتكبوا جريمة تاريخية مروعة من أجل ردّ المؤمنين عن اتباع الحق، ونصرتهم لا لذنب ارتكبوه، او لجريمة اقترفوها إلا إيمانهم بالله العزيز الحميد مَلِكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الشَّهِيدِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فهم لم ينقموا أن ينكروا إنكار المعاقب «إلا أصل المناقب والمفاخر كلّها»^(٣) وهو الإيمان بالله عزّ وجلّ، فكأنّ الإيمان بالله تعالى - وهو أعظم الأعمال - صفة ينقما الكفار على المؤمنين وما هذه النعمة إلا رذيلة زادت في ذمّ الكافرين المنكرين لله ذمّاً آخر بإنكارهم إيمانهم بربهم.

ففي هذا الجو المشحون بالغضب، والانتقام جاء هذا الأسلوب المتميّز بإيحائه النفسي وبنيته وسياقه، ولغته ليعبر عن انتصار الحق البريء على الجريمة المنغمسة بالسفالة. إذ إن في نفي النعمة إيماءً إلى المتلقي بأنّ ما بعد (إلا) سيكون أمراً مستكراً ممجوجاً، ولكنه جاء على عكس ذلك أمراً يستحقون عليه جزيل الشكر، وعظيم التتويه، فضلاً عن أنّ هذا الأسلوب يؤكد قوة الإيمان وعظمتها حتّى ضحّى أهله بأنفسهم في سبيله، وقد صوّرهم الأسلوب القرآني في لوحة معبّرة « ملأت القلب

(١) ينظر: البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم، د. عبد الفتاح لاشين: ٩٠.

(٢) سورة البروج: ٤-٩.

(٣) الإيضاح: ٥٢٥/٢.

بالروعة . روعة الإيمان المستعلي على الفتنة ، والعقيدة المنتصرة على الحياة ، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض»^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿قَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ بٍ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ﴾^(٢٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ {^(٢) ففي هذا الخطاب الإخباري الدالّ على الثبوت والاستقرار، يأتي ما قبل الاستثناء للتبيين من إيجاد أي ناصر أو معين، إذ انشغل أهل الباطل بجريرة أعمالهم، فلا من صاحب ولا معين، ولذا جاء النفي ليعمق هذا المعنى وكذا عندما يفاجأ المتلقي أنّه يغاث عندما يستغاث الخاسر في صفقته بطعام من غسلين الذي يراد به وهو ماء يسيل من أهل النار من القيح والصدید والدم.^(٣) وهذا وجه آخر للخسران والتبئيس من النجاة، وبذلك يكون نفي وجود الصديق الحميم والطعام الطيب قبل الاستثناء يقابله إثبات لوجود الطعام الخبيث (الخبس) وكلاهما ذم. وأمّا نفي الحميم والطعام في هذا الموضع فيمكن القول إنّ سياق سورة الحاقة أبرز انشغال من أوتي كتابه بشماله في الدنيا بماله وسلطانه، ولذا قال لما أوتي كتابه بشماله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾^(٢٨) هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ {^(٤) ثم انشغاله بكفره وانكفائه على بطنه يملؤها طعاماً ليس فيه نصيب للمساكين، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾^(٣٣) وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ {^(٥) ولذا فهو في حشر يوم القيامة مجرد ممّا استلذ به في دنياه، وقد جاءت هذه الآية الكريمة التي عرضت أسلوب الذم بما يشبه المدح مقيدة بقيدتين، الأول: زمني (اليوم) والآخر (مكاني) (هاهنا) وفي هذين القيدتين إلزام المذموم وإخضاعه لمصيره المحتوم في ساعة الحساب إذ جهنم بانتظاره وما اختيار (اليوم هاهنا) إلا إشارة إلى أنّه عذاب قريب قاهر واقع لا محالة.

(١) في ظلال القرآن: ١١٣/٨.

(٢) الحاقة: ٣٥-٣٧.

(٣) ينظر: تفسير الرازي: ١١٧/٣٠، وتفسير كنز الدقائق: ٤٦٥/١٣.

(٤) سورة الحاقة: ٢٨-٢٩.

(٥) سورة الحاقة: ٣٣-٣٤.

ومنه قوله تعالى: {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِلطَّاغِينَ مَابًا ۝٢٢ لَا بَيْتِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ۝٢٣ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا ۝٢٥ جَزَاءً وَفَاقًا} (١)، ففي هذه الآية المباركة يبدو لنا الاستثناء المنقطع الذي يفسر لنا حال الطغاة في مشهد يوم القيامة، فما قبل الاستثناء يحكي حالهم وما يعانون من حر النار فلا يستطيعون رده بما ينفس عنهم هذا الحر، ولا شراباً يسدُّ عطشهم. هذه الصورة وجدها المتلقي أمامه بما تحكي من هول ذلك العذاب، فيأتي قطع الكلام ليظن المتلقي أن هناك متنفساً لهؤلاء الطغاة عن هذا العذاب المهول، فيتفاجأ من استئناف الكلام بما يؤكد الصورة الأولى التي رسمها المتلقي في ذهنه وهو «من تأكيد الشيء بما يشبه ضدَّه في الصورة» (٢) فيأتي الإخبار أن الحميم هو ما يرد به عطشه ولا يرده أبداً فهو ماء قد بلغ أقصى درجات الحرارة، (٣) وهو ما يقابل عبارة (ولا شراباً) لاجتماعهما في معنى السيولة، وعبارة (غساقاً) وهو الصديد الذي يخرج من أجساد أهل النار، ويقابلها ما ذكر قبل الاستثناء (لا يذوقون فيها برداً) الذي يراد به (النوم) أو «مطلق ما يتبرد به غير الشراب كالظل الذي يستراح إليه بالاستئصال فالمراد بالذوق مطلق النيل واللمس» (٤) فالإدافة تصلح للحالات المتنوعة التي تشبع حاجة الإنسان وهنا أنت منفية، وبذا يصحُّ مقابلة غساقاً الذي قد يكون على درجات متفاوتة من السيولة (برداً) المنفية لما خرجت إليه من دلالة مجازية. (٥) ويمكن أن يكون معنى (برداً) هو البرودة المعروفة ومجرد نفيها عنهم فيه إشارة إلى دوام مكثهم في جهنم، فضلاً عن أن النفس العربية توافقة إلى البرد وتنفر من الحر بحكم البيئة الصحراوية القاسية، فجاء نفي البرد عنهم عذاباً لهم، وقد أسند التذوق إلى البرد من باب التجسيم له ،

(١) سورة الحاقة: ٢١-٢٦.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/٣٨.

(٣) تفسير الرازي: ١٦/١٦.

(٤) الميزان في تفسير القرآن: ٢٠/١٨٣.

(٥) ينظر: أساس البلاغة: للزمخشري: مادة (غسق).

فكان جسم له طعم يستساغ ويستلذ به، وحرمان هؤلاء من تذوقه واستطعامه عذاب لهم أيضاً، وإنما قال (لا يذوقون فيها برداً) إشارة إلى أنه ليس دائماً مهيمناً عليهم طول حياتهم، ولو كان كذلك لكان ضرراً وشدة عليهم؛ لأنَّ الشيء إن زاد على الحد انقلب إلى الضدِّ، أمَّا (شراباً) فتذوقه واضح وهو كل ما يشرب فيستلذ به ونفي صفتي المدح (البرد والشراب)، يقابله إثبات صفتي الذم إزائهما وهما (حميم وغساق)، ويتضح المعنى الدقيق لـ(حميم) و(غساق) من جرس اللفظتين فالحميم يوحي إلى الحرارة، والغساق يوحي إلى الغصة بطعم العلقم. ولاشكَّ في أنَّ ما تقدم من مفردات هذه الدراسة وإجراءاتها يكشف عن أنَّ أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم ونقيضه يكتسب أهمية خاصة في دراسته كملحظ بديعي في البلاغة العربية من جهة، وكملحظ مهم في الكشف عن الأسلوب التركيبي لهذا الفن ومعرفة وظائفه الدلالية في النص القرآني.

ملحق

الجدول لمواضع تأكيد المدح بما يشبه الذم ونقيضه في القرآن الكريم

ت	اسم السورة	رقم الآية	موطن الشاهد
١.	البقرة	٢٦٧	لَيَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِأَخِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَمِيدٌ
٢.	النساء	٢٢	{وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا}

٣ .	النساء	٤٦	{مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنْتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا}
٤ .	النساء	١٥٥	{فَبِمَا نَقَضْتَهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا}
٥ .	النساء	١٦٨ - ١٦٩	{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغَيِّرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}
٦ .	المائدة	٥٩	{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ}
٧ .	الأنعام	١٢٨	{لَوْ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِّنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}
٨ .	الأنعام	١٥٨	{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ}
٩ .	الأعراف	١٢٦	{لَوْ مَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبَّنَا لَمَا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرَعُ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}

﴿لَوْ حَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾	٤٧	التوبة	١٠
﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾	٥٢	التوبة	١١
﴿يُخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾	٧٤	التوبة	١٢
﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾	٩٥	التوبة	١٣
﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾	١١٠	التوبة	١٤
﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾	٣٥	يونس	١٥
﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾	٦١	يونس	١٦
﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾	١٠٦	يوسف	١٧

<p>{لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}</p> <p>{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا}</p> <p>{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا}</p> <p>{قَوْلِ الْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِينُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا}</p> <p>{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}</p> <p>{وَرَبُّكَ الْعَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَّ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا}</p> <p>{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}</p> <p>{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَّمتُ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}</p>	<p>١٤</p> <p>٨٩</p> <p>٩٩</p> <p>٢٩</p> <p>٤٩</p> <p>٥٨</p> <p>٦٢</p> <p>٤٠</p>	<p>الرعد</p> <p>الإسراء</p> <p>الإسراء</p> <p>الكهف</p> <p>الكهف</p> <p>الكهف</p> <p>مريم</p> <p>الحج</p>	<p>١٨.</p> <p>١٩.</p> <p>٢٠.</p> <p>٢١.</p> <p>٢٢.</p> <p>٢٣.</p> <p>٢٤.</p> <p>٢٥.</p>
---	---	---	---

{قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا}	٥٧	٢٦. الفرقان
{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إْحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا}	٤٢	٢٧. فاطر
{لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}	٤	٢٨. الزمر
{لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونَ}	١٦	٢٩. الزمر
{لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}	٥٦	٣٠. الدخان
{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيْلًا سَلَامًا سَلَامًا}	٢٦-٢٥	٣١. الواقعة
{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}	١	٣٢. الطلاق
{فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ}	٣٦-٣٥	٣٣. الحاقة
{فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا}	٦	٣٤. نوح
{وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا}	٢٤	٣٥. نوح
{رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا}	٢٨	٣٦. نوح

٣٧. الجن	٢٣	{إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا}
٣٨. النبأ	٢٥-٢٤	{ لَا يَدُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا }
٣٩. النبأ	٣٠	{قَدْوُقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا}
٤٠. البروج	٨	{وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف الكائنات سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الثقات، وبعد:

فإنَّ أساليب العبارة القرآنية ومعانيها ودلالاتها المختلفة لا يمكن أن يحيط بها مثل، هذا البحث وحسبه أن يلم بأطراف منها ويدلَّ عليها، ولما كانت مدار الأمور تقاس بحسن خواتيمها فإننا نسأل العلي القدير أن يكون عملنا هذا مما تحسن خواتيمه، ونستغفر الله تعالى عن أي تقصير قد حصل من دون قصد.

وقد خلصت مسيرة البحث إلى جملة نتائج أوجزها فيما يأتي:

١. لا توجد دراسة مستقلة تجمع كل ما يخص هذا الموضوع على حد علمي، ولهذا قام البحث بدراسة آراء البلاغيين لمصطلح (تأكيد المدح والذم)، وبيان آرائهم التي ذكرت عند القدامى منهم التي أصبحت الأساس في تكوين هذا المصطلح، وقد رأيت أن البلاغيين لم يختلفوا في تحديد مدلول هذا المصطلح، ولكنهم أطلقوا عليه تسميات عدّة منها: تأكيد المدح بما يشبه الذم، والرجوع والاستثناء، والتوجيه، وتأكيد الشيء بما يشبه ضدّه...إلخ.

٢. أرى أن بعضاً من علماء البلاغة وأهل التفسير عند ذكرهم لمصطلح (تأكيد المدح بما يشبه الذم)، فإنهم لا يفرقون في تحليلاتهم بين تأكيد

المدح بما يشبه الذم وعكسه، فيطلقون مصطلح تأكيد المدح بما يشبه الذم في كلتا الحالتين.

٣. لهذا الأسلوب البديعي أثر فاعل في إضفاء المعنى البلاغي والجمالي على الخطاب القرآني، وفي توصيل الغرض الديني الذي يعد من أهم مقاصد القرآن الكريم بل هو الغاية الأساسية من منظومته البلاغية المعجزة.

٤. كان للعملية الإحصائية التي قمت بها لغرض تحديد المساحة التي شغلها أسلوبا تأكيد المدح والذم في القرآن الكريم دور أسلوبى فاعل، إذ تبين من خلال عملية الإحصاء بأن مفهوم تأكيد المدح والذم وعكسهما والذي يعد ظاهرة بلاغية واضحة جد الوضوح في الخطاب القرآني، وهذا إنّ دلّ على شيء إنّما يدلّ على أهمية أسلوبى تأكيد المدح والذم وعمقهما البلاغى فى إيصال المقاصد الإلهية. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. علم البديع (دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البيان): د. بسيوني عبد الفتاح فيود، مطبعة السعادة، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م.
٢. علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع): أحمد مصطفى المراغى، دار العلم، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.
٣. العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده: لأبى على الحسن بن رشيق القيروانى (ت٤٥٦هـ)، حقّقهُ وعلّق حواشيه محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت لبنان، ط٤، ١٩٧٢.
٤. فنون بلاغية: د. أحمد مطلوب، بيروت، ١٩٧٣م.

٥. الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان: لشمس الدين أبي عبد الله الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية (٧٥١هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
٦. في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٦م.
٧. القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ)، ضبط وتوثيق الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م.
٨. كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت ٣٩٥هـ) تح: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٩٥٢م.
٩. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ)، اعتنى به وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٢م.
١٠. لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفرريقي (ت ٧١١هـ)، دار الفكر، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥م.
١١. المصباح في علم المعاني والبيان والبديع: لابن مالك بدر الدين أبو عبد الله محمد بن جمال الدين الأندلسي الطائي (ت ٦٨٦هـ)، المطبعة الخيرية، ط١، ١٣٤١هـ.
١٢. المطول: سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٣هـ)، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
١٣. معترك الأقران في إعجاز القرآن: الإمام جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

١٤. معجم المصطلحات البلاغية: د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٧م.
١٥. مفتاح العلوم: السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي (٦٢٦هـ)، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط١، ١٩٣٧م.
١٦. الميزان في تفسير القرآن: السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٩٨١م)، منشورات دار المجتبي للمطبوعات، إيران، قم، ط١، ٢٠٠٤م.
١٧. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، تحقيق وتقديم: إبراهيم أنيس، وبركات حمدي أبو علي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٨٥.
١٨. وشي الربيع بألوان البديع في ضوء الأساليب العربية، د. عائشة حسين فريد، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠م.
١٩. الإتقان في علوم القرآن: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة التراث، القاهرة، مصر.
٢٠. أساس البلاغة: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) طبعة جديدة ملونة ومنقحة ومصححة، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠١.
٢١. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) تح: أحمد مصطفى المراغي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر، ط١، ١٣٢٧هـ.
٢٢. الأقصى القريب في علم البيان، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عمرو التنوخي (ت ٧٤٩هـ) مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٣٢٧هـ.
٢٣. أنوار الربيع في أنواع البديع: علي صدر الدين بن معصوم المدني (ت ١١٢٠هـ) تحقيق شاکر هادي شكر، مطبعة النعمان، ط١، ١٩٦٩م.

٢٤. الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الملقب بالخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، شرح وتعليق وتنقيح: د. محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الجيل بيروت، ط ٣، د.ت.
٢٥. البديع: عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ)، شرحه وعلق عليه: محمد عبد المنعم الخفاجي، شركة ومطبعة مصطفى بابي الحلبي وأولاده بمصر، د.ط. ١٩٤٥.
٢٦. البديع في ضوء أساليب القرآن: د. عبد الفتاح احمد لاشين، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ٢٠٠٦ م.
٢٧. البديع في نقد الشعر: أسامة بن منقذ (ت ٤٨٤هـ)، تح: أحمد أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٦٠ م.
٢٨. بديع القرآن: عبد العظيم بن عبد الواحد بن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ)، تقديم وتحقيق د. حفي محمد شرف، مطبعة مكتبة نهضة مصر بالفجالة، مصر، ط ١، ١٩٥٧ م.
٢٩. البلاغة الاصطلاحية: د. عبده عبد العزيز قلقله، دار الفكر العربي، د.ط، القاهرة، ١٩٨٧ م.
٣٠. التبيان في البيان: شرف الدين الحسين بن محمد الطيبي (ت ٩٧٩هـ)، تح: د. توفيق الفيل، وعبد اللطيف لطف الله، ط ١، ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت، ١٩٨٦ م.
٣١. تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد بن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ)، تحقيق حفي محمد شرف، القاهرة، ١٩٦٣ م.
٣٢. تفسير التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٩٧٣م)، دار سخنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧ م.
٣٣. تفسير الفخر الرازي المشهور بـ (التفسير الكبير ومفاتيح الغيب):

- الإمام فخر الدين محمد بن ضياء عمر الرازي (ت ٦٠٦هـ)، قدّم له الشيخ خليل محيي الدين الميس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د. ط، ١٩٩٥م.
٣٤. تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب: محمد رضا القمي المشهدي (ق ١٢هـ) تح: حسين دركاهي، دار الغدير للطباعة والنشر، قم، ٢٠٠٣م.
٣٥. التلخيص في علوم البلاغة: الخطيب القزويني: جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان د.ت.
٣٦. جوهر الكنز (تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة): لابن الأثير الحلبي: نجم الدين أحمد بن إسماعيل (ت ٧٣٧هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
٣٧. حاشية الدسوقي على (مختصر السعد) ضمن شروح التلخيص: محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي (ت ١٢٣٠ هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، د. ت.
٣٨. حسن التوسل إلى صناعة التوسل: شهاب الدين محمود الحلبي (ت ٧٢٥هـ)، تحقيق ودراسة: أكرم عثمان يوسف، دار الحرية لطباعة، بغداد، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
٣٩. حلية المحاضرة في صناعة الشعر: لأبي علي الحاتمي (ت ٣٨٨هـ) تح: د. جعفر الكناني، دار الرشيد، بغداد، ١٩٧٩م.
٤٠. دراسات منهجية في علم البديع: الشحات محمد أبو ستيت: القاهرة، ط١، ١٩٩٤م.
٤١. ديوان النابغة الجعدي: تح: عبد العزيز رباح، دمشق، ١٣٨٤هـ.
٤٢. ديوان النابغة الذبياني: تح: كرم البستاني، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت، د. ط، ١٩٦٣م.
٤٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبو الفضل

- شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، ضبطه وصححه:
علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٥م.
٤٤. شرح ديوان أبي الطيب المتنبي لأبي العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ) تح:
د. عبد المجيد دياب، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م.
٤٥. شروح التلخيص، مطبعة السعادة، القاهرة، مصر، ١٩٣٧م.
٤٦. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: العلوي يحيى
بن حمزة (٧٤٩هـ)، مطبعة المقتطف، القاهرة، مصر، ١٩١٤م.
٤٧. علم البديع: د. عبد العزيز عتيق، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٤م.